

عاشراً: التربية والآداب والتصوف عند العز بن عبد السلام:

1 - نماذج من المبادئ التربوية عند العز: عرض العز رحمته الله تعالى رؤيته لمبادئ التربية الإسلامية المستقاة من كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وتمثل جانباً من المنهج الفريد للتربية الإسلامية، وذكر العز هذه المبادئ في مختلف كتبه، ويمكن جمعها واستخلاص نظرية متكاملة منها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى جانب منها للإرشاد إليها والعمل بها فمن ذلك.

أ - أصول التربية لمرحلة الحضانة: حيث يقول: وذلك بحسن التربية، واللفظ، والرفق والحنو، ودفع المضار، وتحسين الحسن للصغير، وتقبيح القبيح، وتعليم الآداب، وتلقين الكتاب وتعليم الخط والعلم إن كان متأهلاً لذلك، أو صناعة تليق بأمثاله، والأمر بالصوم والصلاة، والنهي عن كل خلق ذميم وعمل غير مستقيم، واجتناب الضرب إن تأدب بالقول والتهديد، والضرب الذي لا يصلح إلا به، إلا أنه لا يصلح بالضرب الشديد فيجتنب الخفيف والشديد⁽¹⁾.

(1) شجرة المعارف، ص: 170، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص:

ب - تأديب الأهل بآداب الشرع: حيث يقول: تأديب الأهل إنعام عليهم، وإحسان إليهم، وفضيلة الدعاء إلى الآداب مأخوذة من فضل ذلك الأدب، فأفضل التأديبات التأديب بأفضل القربات وأشرف الطاعات، وكذلك الأفضل فالأفضل، والأمثل فالأمثل⁽¹⁾.

ج - الوسائل التربوية مع الأطفال والتدرج في الأحوال: حيث يقول: وإذا تعلم الصبي ما ينبغي أن يتعلمه من غير زجر فلا يُزجر، وإن لم يتعلم إلا بالزجر زُجر، فإن لم ينجح فيه الزجر ضُرب ضرباً يحتمله مثله وتغلب فيه السلامة، وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرح حرّم المبرح لأدائه إلى قتله، ولم يجز غير المبرح لأنه إنما جاز لكونه وسيلة إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حرم، لأنه إضرار غير مفيد⁽²⁾.

د - المزج بين قواعد الأصول ومبادئ التربية: يقول في هذا المزج: إذا كان الصبي لا يُصلحه إلا الضرب المبرح، فهل يجوز ضربه تحصيلاً لمصلحة تأديبه؟ قلنا: لا يجوز ذلك، بل لا يجوز أن يضربه ضرباً غير مبرح،

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 306.

(2) شجرة المعارف والأحوال، ص: 264، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 306.

لأن الضرب الذي لا يبرح مفسدة وإنما جاز لكونه وسيلة
مصلحة التأديب، فإن لم يحصل التأديب سقط الضرب
الخفيف، كما يسقط الضرب الشديد لأن الوسائل تسقط
بسقوط المفسد⁽¹⁾.

هـ - مداعبة الصبيان والإحسان إلى البنات: ومن هذه
الأصول التربوية دعوة العز إلى مداعبة الصبيان، فقد قال:
مداعبة الصبيان بَسْطَ لهم، وتطبيب لقلوبهم وترويح عن
نفوسهم. ومن هذه الأصول التربوية الدعوة إلى الإحسان
إلى البنات، وإبطال عادات الجاهلية الجائرة، فقال العز:
لما كان الحمقى ينفرون من البنات ويكرهونهنَّ، عَظَّمَ اللهُ
ثواب من خرج من عادة الناس في ذلك بالصبر عليهن
والإحسان إليهن⁽²⁾، ثم يرشد العز إلى أن من الإحسان إلى
البنات المبادرة بهن إلى الأكفاء، فيقول: المبادرة إلى
إنكاح الأكفاء، والرغبة فيهم، مسارعة إلى إحسان المرأة،
ودفع العار عنها، بالتزويج بالكفو، مع أن البعل الصالح
يدعوها إلى كل خير، ويردعها عن كل شر⁽³⁾.. وقام ببيان

(1) قواعد الأحكام (1/ 121)

(2) شجرة المعارف، ص: 241.

(3) المصدر نفسه، ص: 307.

وظيفة المرأة وأثرها في التربية، فقال: شفقة المرأة على مال زوجها أداء للأمانة، وحُنُوها على طفلها حامل على اللطف به، والإحسان إليه بحسن التغذية والتربية⁽¹⁾.

و- الوازع الفطري والشرعي: وبين أن قوة الوازع الفطري عند الإنسان، وأنه أقوى من الوازع الشرعي، لذلك جاءت الأحكام الشرعية منسجمة مع الفطرة، وأن الفطرة السليمة بها وازع في داخلها لا يحتاج إلى توجيه الشرع الذي جاء مطابقاً للواقع والفطرة، فأسقط العدالة في بعض الولايات، فعقد العز كَتَبَ اللَّهُ فصلاً: فيما تشترط فيه العدالة من الولايات، فقال: العدالة شرط في بعض الولايات، وإنما شرطت لتكون وازعة عن الخيانة والتقصير في الولاية، ولا تشترط العدالة في ولاية القريب على الأموات في التجهيز والدفن والتكفين والحمل، والتقدم في الصلاة، لأن فرط شفقة القريب ورحمته على المبالغة في الغسل والتكفين والدعاء في الصلاة وكذلك انكساره بالحزن على التضرع في دعاء الصلاة، فتكون العدالة في هذا الباب من التتمات والتكمالات، وكذلك ولاية النكاح لا تشترط فيها العدالة على قول؛ لأن العدالة

(1) قواعد الأحكام (77/1 ، 78) فتاوى سلطان العلماء، ص: 151.

إنما شرطت لتنتزع الولي عن التقصير والخيانة وطبع الولي في النكاح ينزعه عن التقصير والخيانة في حق موليته لأنه لو وضعها في غير كفاء كان ذلك عاراً عليه وعليها وطبعه ينزعه عما يدخله على نفسه ووليته من الأضرار والعار، وكذلك لو كان الولي مستوراً صح النكاح في ظاهر الحكم اعتماداً على العدالة الظاهرة مع قوة الوازع⁽¹⁾، ولذلك أمثلة كثيرة في الشرع كقبول إقرار الشخص على نفسه ولو كان فاسقاً أو كافراً.

ز - من القواعد التربوية في الدعوة إلى الله: وذكر العز بعض القواعد التربوية في الدعوة والتي سار عليها الأنبياء ويجب الاقتداء بهم، والالتزام فيها، لأنها المنهج الإلهي في الدعوة، فمن ذلك: الموعظة الحسنة، فيقول العز: الموعظة الحسنة أدعى إلى قبول الحق من الموعظة المنقورة، وما أغلظ الأنبياء في مواعظهم إلا لمعانيد جريء على الله⁽²⁾، ومن ذلك: الدعوة باللين وعدم الغلظة، فيقول العز ﷺ تعالى: للين مواطن لا يليق بها غيره، وللغلظة مواطن لا يُناسبها سواه، فمن استعمل أحد

(1) شجرة المعارف، ص: 361، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص:

(2) المصدر نفسه.

الأميرين في موضع الآخر فقد أخطأ، .. وفيه تأليف القلوب، وتطبيب للنفوس، مُوجب للاتفاق على مصالح الدارين⁽¹⁾، ويذكر العز الأدلة والأمثلة من القرآن الكريم ويؤكد العز أن الغضب لا يصح من الداعية إلا إذا انتهكت حرمانات الله ومقدساته، فيقول: العاقل يعرف مظان الغضب لله فيها، ويعرف مظان التلطف، فيتلطف فيها، ألا ترى أن موسى تلطف في أول الأمر بفرعون بقوله: ﴿مَلَّ لَكَ إِلَهٌ أَن تَزُكَّ﴾ (النازعات: 18). ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 104) وغير ذلك من القول اللين الذي أمر به، فلما أصر وأظهر العناد مع تيقنه صدق موسى لقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ثم قال لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (الإسراء: 101) فأجابه بما يقتضيه الحال في الجواب، فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَسْحُورًا﴾ (الإسراء: 102)، أي مُهلكاً، ثم يقول العز: وكذلك جميع الرسل إذا استقرئ أمرهم في بدء الإرسال وجدت فيه الرفق واللين والشفقة على قومهم، فإذا أصرروا وعاندوا أغلظوا لهم حينئذ، لما رغب الله

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 309.

تعالى في رسله من العقول الوافرة والأحلام الكاملة ﴿اللَّهُ
 أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: 124) بخلاف الغبي
 يلين في مواطن الإغلاظ، ويغلظ في مظان اللين، معتقداً
 أنه مقتدٍ بالرسول في غلظتهم ولينهم، فنعوذ بالله من الجهل
 بمظان خطابه، ومن تحريف كلامه وتنزيله على غيره
 مراده⁽¹⁾.

ح - تغيير الأحكام بتغيير الزمان: يمزج العز رَضِيَ اللَّهُ
 تعالى في الأحكام التي تؤدي إلى التطور فإنه يعتد به في
 تغيير الأحكام بتغيير الأزمان، فيقول: فلو حكم الحاكم في
 محل يسوغ فيه الاجتهاد، ثم تغير اجتهاده فحكم بما أدى
 إليه اجتهاده ثانياً كان ذلك قطعاً لما حكم به أولاً، ولا
 يبطل الأول بذلك، بل ينقطع من حين تغير الاجتهاد،
 ويبقى الأول على ما كان عليه⁽²⁾.. فالحكم الشرعي يتغير
 في نفس المجتهد ويشمل السابقة واللاحقة ولكن لا يبطل
 الحكم الأول إذا أفتى به المفتي أو حكم به القاضي بل
 يبقى الحكم الأول لوقته فقط، وللوسائل أو المحكوم عليه
 به، لأن الاجتهاد لا ينقض بمثله، وهذا ما قرره عمر بن
 الخطاب رَضِيَ اللَّهُ في ميراث المسألة المشتركة بعدما تغير

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 309.

(2) قواعد الأحكام (2/48).

اجتهاده، وطلب أصحاب القضية الأولى بنقض اجتهاده السابق، أجابهم بقوله المشهور: تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي، وهذا ما قرره الفقهاء في المذاهب الأربعة بعدم نقض الحكم السابق إذا كان مبنياً على اجتهاد، ثم تغير الاجتهاد، وهو المقرر في جميع محاكم النقض في العالم⁽¹⁾.

وهكذا نلاحظ المبادئ التربوية في فكر العز وذهنه وكتبه وكيف يراعي الفطرة الإنسانية، ويعتد بالوازع الفطري، وأنه أصيل في الإنسان، وله بواعثه الذاتية، ودوافعه الخفية التي تحرك صاحبها تلقائياً في معظم الحالات، لذلك يخفف الشرع من توجيهه فيها، معتبراً أن الوازع الفطري المطبوع عليه الإنسان داخلياً أقوى من الوازع الشرعي، لذلك اعتبر الشرع الحكيم تناول الطعام والشراب والشبع وغيرها مجرد أحكام مباحة أو مندوبة، مع أنها ضرورية للحياة، لأن الوازع الفطري كفيل بتأمينها ورعايتها، وهذا ما أكده الشاطبي فيما بعد في كتابه الموافقات⁽²⁾.

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 310.

(2) المصدر نفسه، ص: 310.

ط - إنسانية الإنسان عند العز بن عبد السلام: وضع الشيخ عز الدين نصب عينيه شيئاً واحداً، جند فقهه لتربيته وتهذيبه، وهو إنسانية الإنسان، فأحاطها بالرعاية والرفق والتستر، وأخيراً .. بالجمال⁽¹⁾، ونذكر أيضاً بكتاب العز رحمته الله تعالى: «أحوال الناس»، فهو في التربية الإسلامية للروح والنفس ومراقبة الله تعالى، والخوف منه، والاستعداد لملاقاته، ومحاسبة النفس في أعمالها وخطواتها محاسبة ذاتية، ورقابة داخلية ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: 14) ليزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويقدر نتائجه سلفاً، ليحتاط عند التقصير، ويرتدع عند الندم، ويزداد في العمل الطيب ويقول العز فيه: ما من برّ ولا فاجر، ومؤمن وكافر، إلا ينظر في البرزخ إلى منزله بكرة وعشية إن كان من أهل النار فمن أهل النار، وإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة⁽²⁾.. ويقول: من الغموم والآلام وأسبابها وأفراحها أفضل الأفراح، ولذاتها أفضل اللذات وأفضل لذة رضا الرب والنظر إليه، وسماع كلامه والأنس بقربه وجواره⁽³⁾.

(1) عز الدين بن عبد السلام، بائع الملوك، لمحمد حسن، ص: 141.

(2) أحوال الناس، ص: 46، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 311.

(3) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 311.

2 - التصوف عند العز بن عبد السلام: اتفقت آراء العلماء والكتاب والمصنفين قديماً وحديثاً على معظم أخبار العز وصفاته وأحواله وكتبه، ولكنهم اختلفوا اختلافاً واسعاً في وصفه بالتصوف أو براءته منه، وتشعب القول في ذلك، لاختلاف الناس في حقيقة التصوف ومشروعيته، واتفاقه مع الإسلام أو مخالفته، واختلاف صورته في التاريخ الإسلامي، ووجود الجذور الأصيلة لمعانيه في القرآن والسنة من جهة، وخلطه بالمصطلحات والمبادئ الدخيلة من جهة ثانية، والتستر وراءه من ذوي النوايا الخبيثة والماكرين والحاquدين من جهة ثالثة، وهل تتفق هذه الأحوال مع حياة العز ومواقفه وكتبه؟ وذهب معظم المؤرخين القدامى، وبعض المعاصرين إلى إثبات نسبة التصوف للعز، واتفاقه مع الكتاب والسنة، واستندوا إلى أدلة كثيرة، أهمها صلته بكبار علماء الصوفية في زمانه كأبي الحسن الشاذلي والمهروردي وحضور مجالسهم وقراءة كتب الصوفية وممارسته لبعض أعمالهم⁽¹⁾، ونقل ابن السبكي: أن الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ المهروردي، وأخذ عنه وذكر أنه كان يقرأ بين يديه «رسالة القشيري» ثم قال السبكي: وقد كان للشيخ عز

(1) المصدر نفسه، ص: 318.

الدين اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك⁽¹⁾، وقال ابن العماد الحنبلي: وله مكاشفات، قال الذهبي: كان يحضر السماع، ويرقص⁽²⁾، وقال السيوطي: وله كرامات كثيرة ولبس خرقة التصوف من الشهاب السُّهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظمه⁽³⁾. وذهب فريق من المعاصرين إلى نفي التصوف عن العز بن عبد السلام رحمته الله تعالى، وأن التصوف يتنافى مع عقلية العز الفكرية والاجتهادية، القائمة على أعمال العقل في النصوص، وتتعارض مع سيرة العز في الحياة ومواقفه وفتاويه وكتبه ومصنفاته، ومما يؤيد أصحاب هذا الرأي ما صدر عن العز رحمته الله تعالى من شدة وصراحة في بعض أمور التصوف، فمثلاً قوله عن بعض الدخلاء: قد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات وهم شر من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون طرق الداهيين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلمات قبيحة⁽⁴⁾.. ويندد العز

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 318.

(2) شذرات الذهب، نقلاً عن: العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 318.

(3) حسن المحاضرة (1/315)، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 319.

(4) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 323، قواعد الأحكام (2/212).

كَثْرَتُهُ بكثير من اصطلاحات الصوفية والرموز التي يستعملها المتصوفة ويُشكل ظاهرها، ويخفي باطنها فيقول: ولهم ألفاظ يستطعمها سامعها منها: التحلي، وهو عبارة عن العلم والعرفان وكذلك المشاهدة ومنها الذوق، وهو عبارة عن وحدات لذة الأحوال ووقع التعظيم والإجلال، ومنها الحجاب، وهو عبارة عن الجهل والغفلة والنسيان، ومنها قولهم: قال لي ربي، وإنما ذلك عبارة عن القول بلسان الحال دون لسان المقال، كما قالت العرب: امتلاً الحوض، ومنها قولهم: القلب بيت الرب، ومعناه القلب بيت معرفة الرب، شبهوا حلول المعارف بالقلوب بحلول الأشخاص في البيوت، ومنها: القرب، وهو عبارة عن الأسباب الموجبة للأبعاد ومنها: المجالسة، وهو عبارة عن لذة يخلقها الرب سبحانه وتعالى مجانسة للذة الأنس، وبمجالسة الأكابر⁽¹⁾، ويقول: الفناء الناشئ عن الاستغراق ببعض هذه الأحوال، وحقيقة الفناء غفلة وغيبة⁽²⁾، ويصل العزقة الإنكار والاستهجان لما يصدر عن المتصوفة من الرقص والسماع فيقول: وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء

(1) قواعد الأحكام (2/ 219 ، 220) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 223.

(2) قواعد الأحكام (2/ 214).

ممن طاش لبه، وذهب قلبه، وقد قال ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم!» ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم، يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله ﷻ ولقد مالوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادعوا .. ومن هاب الإله وأدرك شيئاً من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل ولا يصدران من عاقل فاضل⁽¹⁾ .. ولما سئل العز عن الإنشاد والتواجد والرقص والسماع أجاب: الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وأما سماع الإنسان المحرك للأحوال السنية بما يتعلق بالآخرة، فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسامة القلوب - وهذا شبيه بما يعرف في يومنا هذا بالأناشيد الإسلامية - لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة والسعادة كلها في اتباع الرسول ﷺ واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون، ولا يحضر السماع إلا من في قلبه هوى خبيث، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب، والسماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم وهم أقسام⁽²⁾.

(1) قواعد الأحكام (2/ 220 - 221) العز بن عبد السلام، ص: 324.

(2) فتاوى سلطان العلماء، ص: 324.

إن العز بن عبد السلام امتداد لمدارس التزكية السنية التي سبقه إليها كبار الصحابة وسادة التابعين، من أمثال الحسن البصري، ومالك بن دينار وأيوب السختياني، واستمرت مدرسة التصوف السني إلى يومنا هذا، فهي تهتم بالورع والتقوى والزهد والثقة بالله والاعتماد عليه ودوام الصلة به، وشدة مراقبة العبد لربه في الخلوة والجلوة، والسر والعلن، ولا يقصد إلا مرضاته في كل ما يصدر عنه، ولقد ضرب العز ابن عبد السلام في عصره أروع الأمثلة لهذه المعاني الإسلامية الثابتة في القرآن والتي طبقها رسول الله ﷺ في حياته وعبادته وتربيته، وسار عليها معظم السلف الصالح وأولياء الله وعبّاده الأتقياء، ويوافق عليها كل مسلم يزداد في هذا المجال وازداد في هذا المجال تعلقاً والتزاماً وقرباً وشوقاً كلما تقدمت به السن وعرف حقيقة الحياة وجرب ما فيها، وأيقن مصيره إلى لقاء الله وحسابه وجنته ورضوانه، وهذه المعاني الإسلامية الثابتة والمهمة والجليلة يدعو إليها كل عالم عامل ومعلم صادق وداعية مخلص، ومن هذا الإطار صنف العز كتبه التي وصفت من غيره وصُنِّفت بعنوان «كتب التصوف» كما كثرت هذه المعاني في سائر كتبه في التفسير والعقيدة والفقه وأصول الفقه والتربية، وفضائل

الأعمال، وفي الأخلاق والآداب، لأنها انعكاس عن سيرته وما يكنه في قلبه وما يلتزمه في حياته وسلوكه، كما أن المسلم الصادق يقدر من يتصف بهذه المعاني الإسلامية السامية ويحترم أشخاصهم ويتقرب منهم، ويشي عليهم، ومن هذا المنطلق نعلل احترام العز لمعاصريه من علماء التصوف كالشهروردي والشاذلي، وأبي العباس المرسي، وصدافته لهم، والتقاء معهم، وحضور مجالسهم ومشاركتهم في بعض الجوانب التربوية والسلوكية، بل حتى في قبول الشارات الشكلية التي يتعلقون بها، ما دامت لا تخالف الكتاب والسنة. ومن هذا المنطلق نقبل جميع ما ذكره مترجمو العز باعتباره متصوفاً، وأنه كان يقرأ «رسالة القشيري» في التصوف، وأن له اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك، وإن أريد بالتصوف معناه الاصطلاحي، كمدى وطريقة بحسب السائد والمعروف والمألوف في العصور المتأخرة، فنتطوع أن نجزم أن الشيخ العز لم يكن متصوفاً ولا صوفياً على الإطلاق، ونستدل على ذلك بأمر كثيرة وواضحة، منها أن كتب العز الموسومة بالتصوف هي بذاتها إما للرد على المفاهيم الباطلة التي تسربت باسم الصوفية إلى الإسلام، فهدم العز وجودها ونسبها إلى

الدين والإسلام كالقطب والأبدال، وإما لتقريب المتصوفة إلى الطريق الصحيح والإيمان السليم، والعمل بالشرع، مثل كتابه «مسائل الطريقة» إن صحت نسبتة إليه، فلعله أراد أن يأخذ بيدهم - وهو يحبهم ويحترمهم - إلى الطريق الأقوم، والمنهج السديد، والالتزام بالكتاب والسنة والسيرة وأعمال السلف الصالح، وإما للتخفيف من غلواء المتصوفة، لبيان المعنى الصحيح للمصطلحات الشرعية التي عرضها الحارث المحاسبي في كتابه «مقاصد الرعاية»⁽¹⁾.

والخلاصة، إننا نرى أن العز كان صوفياً حسب قواعد الشرع ومن الناحية الفكرية والقلبية والروحية، وبحسب المعنى العام الوارد في الشرع عن هذا الجانب التربوي في الإسلام، وأنه ملتزم بكل ما جاء في القرآن والسنة من التربية الروحية والقلبية والتهذيب النفسي، ولم يكن متصوفاً بالمعنى الاصطلاحي والعرفي، ولم يلتزم بطريقة يلتزم طقوسها ومصطلحاتها وقواعدها، ولم يدخل في المتاهات الغامضة التي تحتل الظاهر والباطن، والصحيح والفساد، وفيها ركام طيب وخبيث وغث وسمين وبسطة

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 326 ، 327 ، 328.

وغموض وشك وحقيقة وارتياب، وطعن أو سوء ظن بإطلاق الكلمات، مهما كان معناها، ومهما كان المراد منها.. إلخ، فالعزم مع الشرع والدين والنصوص والأحكام، فما أجازته الشرع قال بحله، ولو كان سماعاً، وما حرمه الشرع قال بمنعه، ووقف بشكل صلب في وجه البدع والمنكرات وفي وجه التطرف والمغالاة التي تسربت إلى المسلمين بصور عديدة⁽¹⁾، فالصوفي عند الشيخ عز الدين ابن عبد السلام: من صفت سريره ونارت بصيرته وعلت همته ونطقت حكمته وارتفعت رتبته، وتعلم العلم وعلمه وطلبه من الله لا من غيره، وأن يكون متصفاً بالرضى والسير في الطريق ومراعاة الرفيق، والهدى والتحقيق وفعل الخيرات وترك المنكرات، وإقالة العثرات، وأن يكون مجتهداً في العمل الصالح المرفوع، وأن يكون متأدباً مع شيخه وإخوانه، حافظاً غالباً على شيطانه⁽²⁾.

وملخص القول في تصوف العز بن عبد السلام في النقاط الآتية:

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 329.

(2) العز بن عبد السلام، للوهبي، ص: 97، مسائل الطريقة في علم الحقيقة، ص: 37.

- درس الشيخ عز الدين التصوف كعلم من علوم الشريعة في مرحلة الطلب واستفاد منه كثيراً.

- قام العز بحركة إصلاح في التصوف عموماً، وصحح الكثير من المفاهيم الموهومة، وجعل مقياسه الشرع الإسلامي في قبول مفردات التصوف.

- رفض الشيخ عز الدين بعض السلوكيات التي يمارسها بعض مدعي التصوف، كالرقص وغيرها من الأمور.

- يعتبر تصوف العز بن عبد السلام امتداداً للتصوف السني الذي مارسه الحسن البصري ومالك بن دينار وغيرهم كثير.

وقد قام الأستاذ محمد حسن عبد الله بدراسة جميلة عن عز الدين بن عبد السلام في كتابه: «عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك» وانتهى إلى القول بأن العز بن عبد السلام لم ينتسب إلى طريقة صوفية مما شاع في عصره ولم يلبس خرقة الصوفية من السهروردي ولم يبايع الشاذلي وإن كان صديقاً له، وإنما كان متصوفاً على طريقة السلف في التصوف، وكان بعيداً عن الرقص والتواجد والتصفيق لأن ذلك خفة ورعونة، لقد كان العز رجل كفاح ونضال

وكان يهتم بالتصوف السني من طهارة القلب وصفاء النفس وخلوص النية لله تعالى وتخليية القلب من غير الله وتحليته بذكره⁽¹⁾.

3 - جهاد العز بن عبد السلام: نال الشيخ العز بن عبد السلام شرف الجهاد وكان يدعو إليه ويكتبه في كتبه ورسائله، وهو القائل في رسالة الاعتقاد: الجهاد ضربان: ضرب بالجدل والبيان وضرب بالسيف والسنان.. ولكن قد أمرنا الله بالجهاد في نصره دينه، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسانه، فكما لا يجوز للملوك إغماذ أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء اعتماد أسلحتهم عن الزائغين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويُعزّه بعزّه الذي لا يضام، ويحوطه بركنه الذي لا يُرام، ويحفظه من جميع الأنام. وعلى الجملة ينبغي لكل عالم إذا أُذِلَّ الحق، وأخيمد الصواب أن يبذل جُهدَه في نصرهما وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما.. والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر

(1) عز الدين بن عبد السلام، عبد الرحمن مراد، ص: 63 إلى 65.

في صفوف المشركين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة⁽¹⁾. وقام العز بجهد العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعرض نفسه للمخاطر الشديدة، والأهوال العجيبة - كما مرّ معنا - وعزل بسبب ذلك، وكان مجاهداً جريئاً، ومناظراً قوياً، ومدافعاً صلباً عن دين الله وشرعه، مطبقاً حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم⁽²⁾.

وجاهد الشيخ عز الدين في الحياة والمجتمع لإقامة شرع الله ودينه وحارب البدع، ووقف في وجه الفرق المنحرفة والآراء الباطلة، والعقائد الضالة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونصح أئمة المسلمين وعامتهم كما مرّ معنا، وجاهد أمام الظلمة والطغاة والمستبدين، وخاطر

(1) طبقات الشافعية الكبرى (8/ 223 ، 226) وما بعدها.

(2) البخاري ، كتاب الفتن (6/ 2588).

بنفسه تطبيقاً لما قال، وامتثالاً للحديث الشريف الذي رواه جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»⁽¹⁾ .

وقد قام الشيخ العز بن عبد السلام بهذا الجهاد والنصح للحكام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعلن الثورة عليهم، ولم يطلب العصيان ضدهم، ما داموا مسلمين ويقىمون الصلاة، ويطبقون الإسلام مع الخطأ أو الانحراف⁽²⁾، ويطول بنا الحديث عن جهاد العز بعلمه وبيانه ولسانه وقلمه، فالعز رضي الله عنه لم يتأخر عن الدعوة إلى الجهاد والمشاركة في الإعداد له عندما يهدد العدو بلاد المسلمين وأرضهم وأنفسهم وأموالهم ودينهم، وقد رأيناه لبي دعوة قطز، وهو في الثمانين من عمره، للمشاورة في لقاء التتار، ودعوة المسلمين لذلك، وبيان الحكم الشرعي، وكان الاعتماد في الاجتماع على فتوى العز رضي الله عنه تعالى التي تحقق أثرها بالنصر المبين في عين جالوت على التتار، ولما كانت همة العز أقوى، وجسمه أصلب، وسنّه أقل بقليل شارك عملياً في الجهاد والقتال وملاقات الصليبيين الذين اتجهوا لاحتلال دمياط وسائر مصر بعد أن وصلوا إلى

(1) المستدرك، صحيح الإسناد (3/195).

(2) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 123.

المنصورة، واستظهروا على المسلمين، فهب الجيش المسلم في مصر لمواجهة الغزاة⁽¹⁾. قال ابن السبكي: وكان الشيخ مع العكر، وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح: يا ريح خُذِيهِمْ، عدة مرات، فعادت الريح، على مرآكب الفرنج فكسرتها، وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أَرَانَا فِي أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلًا سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ⁽²⁾. وكان النصر المبين للمسلمين، واعتبر المؤرخون هذه الصيحة من كرامات العز ﷺ⁽³⁾. والكرامة في معتقد أهل السنة تظهر على يد أولياء الله الصالحين تكريماً من الله تعالى لهم، ومصدر الكرامة هو الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل، والعبودية التامة، والاعتماد الحقيقي على الله تعالى، والالتزام بشرع الله تعالى، وكثرة التقرب إليه، وقال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٢٢﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (بونس: 62 - 64) وهذا ما أكده

(1) المصدر نفسه، ص: 124.

(2) حسن المحاضرة (2/ 35) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 124.

(3) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 124.

رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزة فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»⁽¹⁾. وكان العز بن عبد السلام - رحمته الله - لا يبغى إلا رضاء الله تعالى - نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً - ولا يخاف إلا منه ولا يتوكل إلا عليه، فكان الله معه وكان الله له حافظاً ومعيناً، وكان الله عنه مدافعاً من أذى المعتدين وتسلط الظالمين، وسطوة الحكام والأمراء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الحج: 38) وكفاه الله هم الدنيا والآخرة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: 81) ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: 39).

وكان العز حريصاً على تطبيق شرع الله والمسير على جادته وتنفيذ ما أمر به، فكان ينظر بنور الله، ويبصر ببصر الله ويتكلم بقوة الله وجبروته، ويبطش بيد الله، ويمشي في

(1) صحيح البخاري (5/ 2384)، كتاب: الرقاق، باب: التواضع.

سبيل الله، وعلى بركة الله، كما جاء في الحديث القدسي السابق، ومن هنا أكرمه الله تعالى بأمر خارقة للعادة، مر معنا قصته مع اللصوص في البستان، وقصته في تغيير اتجاه الريح بسبب دعائه في معركة دمياط ضد الفرنج، وقصته مع نائب السلطنة الذي جاء العز وهو شاهر السيف ليقتله، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له⁽¹⁾، ونضيف هنا قصة جديدة وطريفة، نقلها ابن السبكي فقال: كان في الريف شخص يقال له: عبد الله البلتاجي من أولياء الله، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقة، وكان يُهدي إليه في كل عام، فأرسل إليه مرة هدايا كثيرة، ومن جملتها وعاء فيه جُبْن، فلما وصل الرسول إلى باب القاهرة؛ انكسر ذلك الوعاء وتبدد ما فيه، فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمي، فقال له: لم تتألم؟ عندي ما هو خير منه، قال الرسول: فاشتريت منه بَدَلَه وجئت، فما كان إلا بقدر أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يعلم بي ولا بما جرى لي غير الله تعالى،

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 127، طبقات الشافعية (8)

وإذا بشخص نزل عند من الشيخ، وقال: اصعد بما جئت به فناولته شيئاً فشيئاً إلى أن سلمته ذلك الجبن، فطلع ثم نزل، فقلت: أعطيته للشيخ؟ فقال: أخذ الجميع إلا الجبن ووعاهه فإنه قال لي: ضعه على الباب، فلما طلعت أنا، قال لي: يا وليد ليثس تفعل هذا؟ إن المرأة التي حَلَبت لبن هذا الجبن كانت يدها متنجّسة بالخنزير، وردّه وقال: سلّم على أخي⁽¹⁾.

4 - وفاته: بعد عمر مديد ناهز الثالثة والثمانين عاماً في الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام ونشر دعوته، توفي العز بن عبد السلام في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة هجرية (660هـ) وقد ذكر ابن السبكي عن ابن العز الشيخ عبد اللطيف أن وفاة والده في التاسع من جمادى الأولى (660هـ) وذكر في رواية أخرى أنها في 10 جمادى (660هـ)⁽²⁾، وهو ما عليه عامة المؤرخين، وهناك رواية لتلميذ العز الدميّاطي توفق بين الروايتين وهي قوله: توفي العز يوم السبت 9 جمادى الأولى (660هـ)

(1) طبقات الشافعية الكبرى (8/ 213)، العز بن عبد السلام، ص: 128.

(2) طبقات السبكي (8/ 248) فتاوى شيخ عز الدين بن عبد السلام، ص: 154.

ودفن من الغد في سفح المقطم حضرت ذلك وكان درسه الأخير الذي ألقاه على الناس تفسير قول الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ...﴾⁽¹⁾. قال أبو شامة وهو تلميذ العز أيضاً ومؤرخ حياته: يوم الأحد عاشر جمادى الأولى، أو حادي عشر جمادى الأولى توفي العز بن عبد السلام في مصر وعمل عزائه في جامع العقيبة يوم الاثنين 25 جمادى الأولى سنة (660هـ)، حضر جنازته الخاص والعام، وصلى عليه الظاهر بيبرس بالقرافة، ودفن في آخر القرافة مما يلي الجبل من ناحية البركة، وصُلي عليه صلاة الغائب في جامع دمشق وغيرها من الجوامع بالشام، يوم الجمعة آخر جمادى الأولى ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: الصلاة على عز الدين بن عبد السلام⁽²⁾. وقال ابن كثير: توفي في العاشر من جمادى الأولى وقد ناهز 80 سنة ودفن في الغد بسفح المقطم⁽³⁾.

وقال الذهبي: توفي بمصر في جمادى الأولى سنة (660هـ) وحضر جنازته الخاص والعام، السلطان فمن

(1) العز بن عبد السلام، سلطان العلماء، ص: 179

(2) الذيل على الروضتين، ص: 216، فتاوى شيخ الإسلام العز، ص: 154.

(3) البداية والنهاية (13/442).

دونه، ودفن بالقرافة في آخرها، ولما بلغ السلطان خبر موته قال: لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس في ما أراد لبادروا إلى امتثال أمره⁽¹⁾، وقال السبكي نقلاً عن ولده الشيخ عبد اللطيف: وكانت وفاة الشيخ في تاسع جمادى الأولى في سنة ستين وستمئة فحزن عليه - الظاهر - كثيراً حتى قال: لا إله إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيخ أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته وحمل نعشه، وحضر دفنه⁽²⁾، وقد اختلف في عمره روايتين إحداهما أن عمره: اثنتان وثمانون سنة والأخرى ثلاث وثمانون سنة، وهذا الاختلاف راجع إلى الخلاف في ولادته، فمن قال إنه ولد سنة (577هـ) جعل عمره 83 سنة ومن قال إنه ولد سنة (578هـ) جعل عمره 82 سنة، وأما ما ذكره المقرئ من أن عمره اثنتان وستون فهو خطأ لأنه مخالف لما ذكره عامة المؤرخين، ولعله تحريف من النساخ أو خطأ منهم والله أعلم، وبالجمع بين هذه الروايات أرى أن أقربها للصحة والصواب ما ذكره السبكي من أن عمر العز ثلاث وثمانون سنة⁽³⁾، والله أعلم.

(1) العبر (260/5).

(2) طبقات الشافعية (245/8) فتاوى شيخ الإسلام، ص: 155.

(3) طبقات الشافعية (245/8) فتاوى شيخ الإسلام، ص: 155.

5 - أقوال العلماء فيه: لقد شهد العلماء قبل العامة للعز بن عبد السلام بالإمامة والرياسة وعلو المقام، يدل على ذلك مواقفه التي ذكرنا طرفاً منها ومؤلفاته وتلامذته الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وقد شهد للشيخ علماء عصره ومن جاء بعدهم من جهابذة العلم ومشاهير الرجال وهذه نبذة من أقوالهم⁽¹⁾ .

أ - ثناء المعاصرين له :

- قال العلامة ابن الحاجب صديق العز ومعاصره ورفيقه في السفر والرحلة عن العز: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي⁽²⁾ .

- قال العلامة، جمال الدين الحصري: (ت 637هـ) شيخ الحنفية في زمانه مخاطباً سلطان دمشق عن العز: هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا، كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حُلولة في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك⁽³⁾ .

(1) فتاوى شيخ الإسلام، ص: 156.

(2) طبقات الشافعية الكبرى (8/ 214) حمن المحاضرة (1/ 315).

(3) طبقات الشافعية (8/ 237) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 195.

- وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: (ت 656هـ) معاصر العز يمدح مجله في الفقه: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام⁽¹⁾.

- وقال الحافظ زكي الدين المنذري: (ت 656هـ): مفتي الشافعية بمصر ومعاصر العز: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمُنصب الفتيا متعين فيه.

ب - ثناء بعض التلاميذ على العز: قال أبو بكر بن مسدي الأندلسي: (663هـ)، تلميذ العز عن شيخه: أحد فقهاء هذا المذهب، ممن فرَّع على أصوله، وهذَّب، ورأس فقهاء بلده⁽²⁾.

- قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة (665هـ) أحد تلامذة الشيخ: وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة وأزال كثيراً من البدع التي كان الخطباء يفعلونها، من دقِّ السيف

(1) حسن المحاضرة (1/315) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 195.

(2) تاريخ علماء بغداد، ص: 105، العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 195.

على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان، ومنع منهما.

- قال القاضي الفقيه الأصولي الأديب الحافظ ابن دقيق العيد (702هـ): تلميذ العز عن شيخه: كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء⁽¹⁾.

- قال عز الدين الحسيني تلميذ العز عن شيخه: كان عالم عصره في العلم جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما هو عليه من ترك التكلف مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه⁽²⁾.

ج - ثناء العلماء والمصنفين على العز: - قال الذهبي (ت 748هـ) عن العز: .. بلغ رتبة الاجتهاد وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين⁽³⁾.

- وقال فخر الدين بن شاکر الكتبي (ت 764هـ) عن

(1) حسن المحاضرة (1/315) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 195.

(2) شذرات الذهب، نقلاً عن: العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 196.

(3) العبر في أخبار من غير (5/260) العز بن عبد السلام، ص: 196.

العز: شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين ..
 سمع .. وتفقه .. ودرس وأفتى، وبرع في المذهب، وبلغ
 رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة
 وله الفتاوى السديدة، وكان ناسكاً ورعاً، وأماراً
 بالمعروف، نهأً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة
 لائم⁽¹⁾.

- وقال اليافعي اليمني (ت 764هـ) عن العز: سلطان
 العلماء، وفحل النجباء، المقدم في عصره على سائر
 الأقران، بحر العلوم والمعارف، والمعظم في البلدان، ذو
 التحقيق والإتقان والعرفان والإيقان ... وهو من الذين قيل
 فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم
 دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين في
 الرعييل الأول⁽²⁾.

- وقال العلامة تاج الدين ابن السبكي (ت 771هـ) في
 ترجمة العز: شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة
 الأعلام، سلطان العلماء إمام عصره بلا مدافع، القائم
 بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع

(1) فوات الوفيات (1/ 594 - 595) العز بن عبد السلام، ص: 197.

(2) مرآة الجنان (4/ 153) العز بن عبد السلام، ص: 197.

على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها لم يُرَ مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله، عِلْماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وقوة جنان، وسلطة لسان⁽¹⁾.

- وقال العلامة الفقيه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي (772هـ) في ترجمة العز: الشيخ عز الدين ... كان تَكَلَّمَ شيخ الإسلام علماً وعملاً، وورعاً، وزهداً وتصانيف، وتلاميذ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، يهين الملوك فمن دونهم، ويغلظ القول .. وكان فيه مع ذلك حسن محاضرة بالنوادر والأشعار⁽²⁾.

- وقال المؤرخ الفقيه الأديب العماد الحنبلي عن العز: عز الدين، شيخ الإسلام .. الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف

(1) طبقات الشافعية الكبرى (8/ 209)، العز بن عبد السلام، ص: 197.

(2) طبقات الشافعية، للإسنوي (2/ 84) العز بن عبد السلام، ص: 197.

التصانيف المفيدة⁽¹⁾.

د - ثناء بعض المتأخرين على العز:

أ - ثناء الشيخ عبد الله مصطفى على العز: عبد العزيز .. الملقب بعز الدين، المعروف بسلطان العلماء، شيخ الإسلام والمسلمين وإمام عصره بلا مدافع، وفريد زمانه بلا منازع، كان ابن عبد السلام عَلَماً من الأعلام، شجاعاً في الحق، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر فقيهاً أصولياً، محدثاً، خطيباً، واعظاً، أديباً شاعراً، رقيق الحاشية، حاضر النادرة، محترماً، وقوراً، تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه⁽²⁾.

- وقال العلامة مصطفى السباعي: بعد أن عرض العصر الذي سبق العز، وسكوت أكثر العلماء عن الجهر بالحق، أو مسaire الحكام، أو اعتزال الحياة العامة قال: في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم «سلطان العلماء» عز الدين بن عبد السلام، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهبُّ على قلوب اليائسين، وعزيمة من

(1) شذرات الذهب، نقلاً عن: العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص:

(2) الفتح المبين في طبقات الأصوليين (73/2).

عزومات الإيمان، تنبعث في أوساط المتخاذلين، وموضحة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في دياجير الظلام، وسوطاً من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين، إن العز بن عبد السلام من أعظم علماء الإسلام الذين تهزني دراسة آثارهم وسيرتهم هزاً عنيفاً⁽¹⁾.

- وقال الأستاذ رضوان علي الندوي: ... وهناك جانب لشخصيته آخر مشرق .. وهو ملكته الأصيلة في فهم الشريعة وروحها ومقاصدها فهماً راسخاً شاملاً عقلياً دقيقاً مبتكراً بعض الابتكار وهو من السابقين الأول في حركة «التقعيد» في الفقه الإسلامي وتطويره... إلى أن قال في الخاتمة: «انتهينا من البحث في حياة سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام، فرأيناه عالماً جليلاً يدرس ويؤلف ويفتي وقاضياً عدلاً يحكم ويقضي، وعرفناه عالماً مجاهداً يوجه ويرشد ويعترض وينتقد الملوك والأمراء والعامّة على السواء، وهو في هذا يتحمّل الأذى والمشقة ويتعرض للخطر والاضطهاد، فلا يبالي ولا يقف ويواصل النشاط، ويدأب على العمل، ويقوم على الحق ويحاول

(1) العز بن عبد السلام، للندوي، تقديم مصطفى السباعي، ص: 5-6.

إقامته في المجتمع حتى قضى... وكان بذلك رجل عصره وموجّه زمانه وقدوة لمن بعده⁽¹⁾.

- وقال محمد حسن عبد الله في ختام بحثه عن عبد العزيز بن عبد السلام بائع الملوك: بعد معرفتنا بهذا كله ندرك أيّ حياة كانت لهذا الرجل الذي زلزل قواعد الظلم في زمانه، وجدّد حياة الحركة العلمية الإسلامية وأعاد الدماء الحارة الحرة إلى شرايينها، فأعاد إلينا ذكر المصطفين الأخيار من علماء صدر الإسلام، وقادته الاجتماعيين، ومتصوفته العارفين⁽²⁾.

- العز يعرف نفسه:

وقبل كل هذا الثناء من الآخرين، وبعد هذا الثناء، يأتي ثقة العز العالم الواثق بربه والعارف لما أعطاه الله من علم وفقه وحرصه على نشره بين الناس ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولذلك لما هاجر من دمشق، ورحل في طريقه إلى مصر، هرع إليه أمراء المدن لاستضافته في إماراتهم لكي يحظوا بوجوده عندهم، ويسابقوا غيرهم، ويفخروا به؛

(1) العز بن عبد السلام، للندوي، تقديم مصطفى السباعي، 177، 178.

(2) العز بن عبد السلام، بائع الملوك، ص: 197.

ومن بين هؤلاء صاحب الكرك وهي قلعة قوية، ومدينة صغيرة فجاء سلطانها وسأل العز الإقامة عنده، فأجابه بصراحة الرجال، وثقة: بلدك صغير على علمي، وقصدي نشره، وتابع سيره إلى أرض الكنانة، وعاصمة الأيوبيين في القاهرة.

وصدق الشاعر عندما قال:

هم الرّجال وعيبٌ أن يُقال لمن

لم يتصف بمعاني وصفهم رَجُلٌ⁽¹⁾.

هـ - ما قيل فيه من شعر:

قال فيه تلميذه ابن الطباخ:

مجلدكم بحر وإني امرؤ

لا أحسن العوم فأخشى الغرق

وقال يحيى بن عبد العظيم الجزار بمدح الشيخ: ذكر

ابن السبكي بيتين من ذلك هما:

سار عبد العزيز في الحكم سيراً

لم يسره سوى ابن عبد العزيز

(1) العز بن عبد السلام، للزحيلي، ص: 203.

عمنا حكمه بفضل بسيط
شامل للورى ولفظ وجيز
وقال قاضي أسوان عمر بن عبد العزيز يمدحه في
مجله :

مولاي عز الدين عز بك الملا
فخراً فدون حذاك منه الهام
لما رأينا منك علماً لم يكن
في الدرر قلنا إنه إلهام
جاوزت حد المدح حتى لم يطق
نظماً لفضلك في الورى النظام
وهذا فيض من غيض مما ذكره العلماء فيه⁽¹⁾ رحمه
الله رحمة واسعة وأعلى ذكره في المُصلحين وأسكنه فسيح
جناته وجمعنا به في دار الخلود مع الأنبياء والصديقين
والشهداء والصالحين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين .

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 158.